فاروق المعظم

جاهدت مصر عشرات السنين حتى فازت ببعض أمانيها . وهى لاتقف اليوم قانعة . بل هى دائبة على استكمال البقية لتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين دول العالم. وأبناء وادى النيل لايهدفون الا للمثل العليا

وفى الحرب العالمية الثانية اشتركت مصر فى غمارها بصفة شبه رسمية .فقد كانت دولة غير محاربة ولكن ساهم جيشها بجهود لاتقل عن جهود أمم كبيرة . ساهم جيشها الفتى على حداثة عهده بالتسليح الحديث وتنظيمه الجديد الذى بدىء به عام ١٩٣٨ . فى الدفاع عن الوطن المصرى . براً وبحراً وجواً

بيد أن ابناء سيالوط ونجع حمادى وقويسنا وأسيوط والقاهرة واسكندريه قوم متواضعون أدوا جميعا واجبهم فى صمت وهدوء . ودافعوا عن الصحراء الغربية والموانىء المصرية والسكك الحديدية وقناطر النيل وقنال السويس

فقد اشتركت أسراب سلاح الطيران الملكى المصرى فى وقاية الأجواء المصرية فوق سيناء والدلتا والصعيد بل وتجاوزتها الى القارة الأوربية والأسيوية وأواسط إفريقيـة ؟ ودافعت النسور المصرية عن القاهرة والبحر الأحمر . وحمت قوافل الحلفاء فى البحر المتوسط واستكشفت غواصات الأعداء . .

ودافعت الوحدات المصرية من مختلف الأسلحة عن مرسى مطروح والضبعة ومواقع الحدود . وقد تحملت كتيبة مصرية فى السلوم الصدمة الأولى من الأعداء إلى أن اضطرت الى الانسحاب الى سيدى برانى وسيوة بعد تكبدها خسائر فى الأرواح والعتاد

كما دافعت آلايات الخيالة الميكانيكية عن مواقع كثيرة فى الصحراء الغربية والسواحل المصرية ومراقبة قوات الأعداء فى كل مكان

وحمت قوات مصر خطوط المواصلات والقناطر والخزانات ومرافق البلاد فى المدن الكبيرة والثغور والمطارات إلى وادى حلفا

ولا أدرى إذا كنتم تعرفون أن الدفاع الجوى عن القطر المصرى بأجمعه قام على أكتاف الجندى المصرى . فكانت وحدات الأنوار الكاشفة والمضادة للطائرات هى التى قامت وحدها ـ نعم وحدها فقط برد طائرات الأعداء عن سماء مصر . والجنود المصريون هم الذين دافعوا وحدهم عن قنال السويس طيلة مدة الحرب — هذا الشريان الذى يحدثوننا دائما عنه بانه أهم طرق المواصلات البحرية فى العالمين القديم والحديث ..

وقام رجال سلاح المهندسين الملكيين بازالة القنابل التى ألقتها طائرات العدو. ورفع الألغام .. بل وأقاموا التحصينات والاستحكامات البرية ومدوا أنابيب لمياه . أضف إلى ذلك أنهم انشأوا كثيراً من خطوط السكك الحديدية عبر الصحراء

هذا قليل من جهود كبيرة اضطلعت بها أسلحة الجيش المصرى. وبهذه الجهود تتبوأ مصر مكانها الذى تستحقه بجدارة وبحق

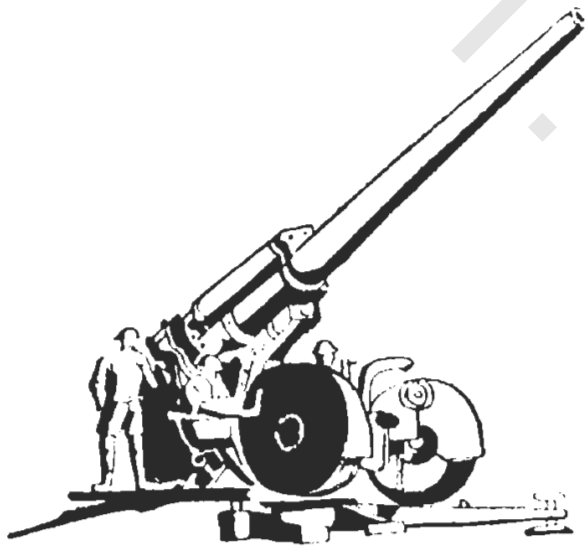

لنذكر دائماً ..

* رأينا فى الصفحات السابقة كيف مرت بمصر عصور زاهية تمتعت خلالها بنعيم الحرية والاستقلال . وكيف قاسى المصريون من غدر المحتلين وحقدهم وغيرتهم ـ من الهكسوس والآشوريين والفرس واليونان والرومان والعثمانيين . الخ ومع ذلك خلدت مصر بالرغم عن المحن والأهوال التى لاتكاد تتصور . . ولم تتهكسس مصر أو تتأشور أو تتأغرق . . الخ وينبغى أن لانسى أنه فى كثير من حقبات الاحتلال كان سلطان المحتلين لايتغلغل فى صميم وادى النيل ولم يجاوز شواطىء البحر الأبيض المتوسط . .

وسبب ذلك هو احتفاظ أبناء وادى النيل بذاتيتهم وخصائصهم ومناعتهم ضد الفناء وعدم قبول الذوبان والتلاشى فى غيرهم من أقوام الفاتحين . ولهذا مرت بمصر خطوب لو حدثت لغيرها من الأمم لذابت وانقرضت كما انتهت فينقيا وآشور وروما ـ ولكنها نجت وخلدت واستعصت على الفناء

هذا فى تاريخ مصر القديم ـ أما فى تاريخها الحديث ـ فقد رأيناها تنجو من الاحتلال الفرنسى العقيم بقوة روح شعبها وعادت جيوش نابليون من حيث أتت تجر أذيال الخيبة والفشل .

وفى أيام محمد على العظيم قاومت مصر كل الدول الأوربية ووقفت لظفرها بالرصاد وهددتها بالقوة . بل هاجمت حصونها لكي لاتتنفس الصعداء

* كانت الدول العظمى فى العصرين القديم والحديث تتفادى مواجهة جيوش مصر قبل أن تجند عليها الدسائس والخيانات كما فعل الفرس والاغريق والرومان والعثمانيون والفرنسيون والانجليز . . . كل هؤلاء تغلبوا على مصر عن طريق الخيانة والدسائس ـ فعل هذا جميع الغزاة كما فعل السلطان سليم مع الأمير خير بك نائب حلب . ومن أجل هذا رأينا الدول تفزع من فتوح محمد على فتسرع بعقد المؤتمرات

وتغتال أسطول مصر غدراً بغير قتال فى معركة نفارين ـ وفى معاهدة لندن وغيرها. فتحرم مصر ثمار انتصاراتها

والتاريخ يعيد نفسه فى أيام اسماعيل العظيم ـ فبمجرد تأسيسه الدولة المصرية أو النيلية وشق قناة السويس تدخلت انجلترا والدول الكبرى بحجج كثيرة ثم أوغرت صدر السلطان ضده فيعزله ثم تتآمر الدول فيما بينها بالكيد والنيل من سمعته بكل الأساليب الى أن تنتهى الحوادث باحتلال عام ١٨٨٢

ولكن المصريون قوم نزاعون الى الفضائل اذا ساءت الحال واشتد البلاء. مع انهم ليسوا بأمة ثورة ورعونة تخصصت للحرب والقتال كاسبرطة أو بروسيا.

* ولم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى هب المصريون هبة واحدة فى وجه انجلترا. وهذا الماريشال ويفل يصف كيف قامت هذه الثورة ويقول:

« أن الرخاء السائد اذ ذاك كان يجب أن يكون من أسباب السكينة لامن أسباب الثورة. وهناك حقيقتان:

الأولى أن الحرية والاستقلال ليسا غريبين عن مصر. والثانية أن المظاهر فى مصر كثيرا ماتخدع الناظر والباحث. فهناك دائماً أشياء أخرى فى الأعماق غير تلك التى تطفو على السطح »

ويظاهر عبارة الماريشال ويفل من وجه ماقول عالم بالآثار: إن مصر فى تاريخها الطويل إما أمة محتلة ترسف فى أغلال الفاتحين وترنو الى الحرية والاستقلال. وإما امبراطورية تتطلع الى الفتح والغلب وتسوق جيوشها ذات اليمين وذات الشمال. ولا وسط فى تاريخها بين هذين

* ابتليت مصر منذ القدم بالغيرة والعداوة والافتراء ـ فكانت ترسل اليونان علماءها ورحالتها ليقفوا بانفسهم على حضارة مصر وعلومها لينقلوها الى بلادهم ـ وكانت رومه بالنسبة الى مصر أغير من النساء اذ كانت تعلم أنها لن تثبت لها دولة

مادامت مصر ذات أسطول وجيش . وفى صنيع جميع الدول التى احتلت مصر شواهد على صدق هذه الحقيقة (١)

☆ خلدت مصر لأن معنويتها قوية جداً . وهذه الصفة تبدو فى الشعوب كما تبدو فى الأفراد سواء بسواء . وأقرب مثل لها الطليان واليونان فى الحرب العالمية الثانية . فقد امتلأ تاريخ اليونان بالبطولة فيها . كما خلا تاريخ ايطاليا من كل فخر فيها . وينبغى مراعاة الفرق بين الأمتين فى العدد والموارد من كل وجه الا من وجه واحد هو هذه الفضيلة أو السجية . وهما مع ذلك أمتان قديمتان ولكل منهما مدنية وحضارة مشهورتان

وتبدو هذه الفضيلة فى أروع مظاهرها ومصر مغلوبة معذبة . وقف دارا ملك الفرس فى معبد بتاح بجوار تمثال رمسيس الثانى يقترح على كهنة مصر أن يقيموا تمثاله الى جانبه . فجابهه كاهن منهم بصراحة مفضلا عليه رمسيس إذ قال :

« إنك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تبل مثل بلائه »

فتلقى دارا اللطمة بحلم عظيم وأجاب : « سأفعل كما فعل اذا عشت كما عاش »

وهذه المعنوية من وحى الفطرة . كما أملتها غريزة حب البقاء والمحافظة على النوع . وهى ايمان بالنفس وبالعنصر

☆ أليس من العجب أن تنجو مصر من نظام الحكم الرومانى وقد دام حوالى ستمائة عام . أليس من العجب أن يبيد أعداؤها وأن تسلم هى من الفناء . وأن يشهد التاريخ أنها كانت أقوى وأثبت جذورا فى الأرض من قاهريها ؟ هؤلاء القاهرون الذين تفننوا فى إذلالها وسحقها انتقاما منها من جهة . ولقتل روحها من جهة أخرى . لقد كان المصريون اذا اشتد البلاء بهم اعتصموا بالمصابرة ونزعوا إلى النوازع الصوفية وقاية لأنفسهم من الفناء

---

(١) من مقال للاستاذ عبد اللطيف قاسم فى مجلة الاصلاح الاجتماعى

وقبل أن نختم هذا الكتيب نأتى بكلمة للمؤرخ الكبير شارل سينيوبوس فى كتاب حديث له صدر بعد الحرب الأخيرة وعنوانه :

(Histoire sincère de la nation francaise) (1

la france n'a jamais été un pays ou l' on ait re - - crute facilement des volontaires, les guerriers y'ant toujours été d'une origine étrangére et jusqui à la Révolution les armées y ant été formées en partie d' étrangers ,,

« إن فرنسا لم تكن فى يوم الأيام بلدا يمكن أن يجمع فيه بسهولة جيش من المتطوعين . وقد كان المحاربون فى فرنسا دائما من أصل أجنبي . والى عهد الثورة الفرنسية كان جزء من جيوشها مكونا من الأجانب (كالألمان والسويسريين والهولنديين والأسبان)

ذكرنا هذا لان بعض المؤرخين الذين يتلمسون مواطن الضعف فى تاريخ مصر يقولون أن معظم الجيوش التى انتصرت فى تاريخها الطويل لم تكن مصرية الا بالأسم. بل كانت من العرب والأكراد والمغاربة والسودان وغيرهم من العناصر الاجنبية والجنود المرتزقة

والرد على هؤلاء المتعصبين ليس عسيراً فى شىء . فقد كانت جيوش مصر الظافرة مصرية بحتة حتى نهاية العصر الفرعونى . وأما فى العصر الاسلامى فقد كانت طبيعة الدولة الاسلامية كلها تقضى بأن يتظافر أبناء ديار الاسلام فى الدفاع عنها . كما يشترك اليوم اهل كندا واستراليا ونيوزيلنده وجنوب أفريقيه مع أبناء الجزر البريطانية فى الدفاع عن كيان الامبراطورية ـ فمصر كانت فى العصور الوسطى من أهم دعائم الامبراطورية الاسلاميه . وكان طبيعى أن يشترك فى الدفاع عنها جنود المسلمين من جميع الأجناس تحت لواء أمرائها وحكوماتها المختلفة ـ

(١) طبعة عام ١٨٤٥ . ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥

فقد كانت مصر فى ذلك الوقت قلب العالم الاسلامى النابض ـ مثلها بالنسبة اليه ـ مثل الجزائر البريطانية بالنسبة الى الإمبراطورية البريطانية فى العصر الحديث

✡ لقد ظفرت مصر وخلدت على مر الدهور لان ابناءها أرادوا ذلك فمعنويتهم عميقة فى نفوسهم . ولو كانت قوتها أضعف من هـذا لتلاشت وفنيت . شأنها فى ذلك شأن الدول الـكبرى التى بادت وستبيد . فعلينا أن نرجع الى ماضينا ونذكره لأن الماضى مصدر الالهام لا المباهاة . لنتمكن من الـكفاح والنضال فى جميع أدوار حياتنا

تم بحمد الله

مساء الخميس الموافق ٢٠ جماد أول ١٣٦٥

١٨ ابريل ١٩٤٦

obeikandl.com